﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ [الحج: 25]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

شَرُّ شُعَبِ الكفر الصَّدُّ والعُدوان

لمّا أخبر سبحانه عن مصير الفريقيْن وزاد المؤمنين نعتَ الهدايةِ إلى صراط العزيز الحميد قولًا وعملًا، وكان هذا الصِّراط هو سبيل اللّه الَّذي يرتضيه - أعاد ذِكْر الكافرين وزادهم نعتًا مُقابِلًا - وهو الصَّدُّ عن سبيل اللّه وعن المسجد الحرام؛ فالهداية إلى الطَّيب من القول والهداية إلى صراط الحميد غاية التَّوفيق لغاية الإقبال على سبيل اللّه؛ ويُقابله الصَّدُّ المذكورُ في هذه الآية.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾: أصل (عكف) يدلُّ على مُقابلةٍ وحبْس، والمقصود بالمقابلة: الإقبال على الشَّيء[1]، والعكوف: الإقبال على الشَّيء وملازمته على سبيل التّعظيم له[2]، والمُراد به في الآية: المُلازم المقيم.

2) ﴿وَٱلۡبَادِۚ﴾: أصل (بدو) يدلّ على ظهور الشيء، يُقال: بدا الشَّيء يبدو: إذا ظهر، فهو بادٍ، وسُمّي خلاف الحضر بدوًا؛ لأنَّهم في بَرازٍ من الأرض ظاهرون، وليسوا في قُرًى تسترهم أبنيتُها، والبادية خلاف الحاضرة[3]، وكلمة (بدو) - بالفتح - مصدر للفعل بَدا، واسمٌ لمكان البَدْو (أي: للبادية)، وللمُتّصفين بالبَداوة وهم سكّان البادية[4]، والمُراد به في الآية: الوافد على البيت الحرام من

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عكف).
(2) الرّاغب، المُفردات: (عكف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدو).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (بدو).

سُكّان البادية، ويدخل في مدلوله مَنْ يأتي من خارج مكّة ولو لم يكن من البدو.

3) ﴿بِإِلْحَادٍ﴾: أصل (لحد) يدلُّ على مَيْلٍ عن استقامةٍ[1]، واللَّحْد: حفرةٌ مائلةٌ عن الوسط[2]، وألحد الرَّجل؛ أي: ظَلَم في الحَرَم؛ وهو من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾؛ أي: الجائر بمكة، قيل: الإلحاد فيه: الشَّكُّ في الله، وقيل: كلُّ ظالمٍ فيه مُلحدٌ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنَّ الَّذين كفروا بالله ورسله، واعتادوا مع ذلك منْع الناس من الدُّخول في الإسلام، ومنْع المؤمنين من دخول المسجد الحرام الَّذي جعله الله حرمًا آمنًا للنّاس جميعًا المُقيم والزّائر - يجازيهم على ذلك بالعذاب الشديد، وكذلك كلّ مَنْ ينحرف عن الحقِّ، ويرتكب أيَّ ظُلمٍ في الحرم عذَّبه عذابًا أليمًا[4].

حـــقَّ الـــقـــولُ بالوعيد على كلّ كـافـرٍ صـادٍّ عن سبيل المؤمنين إلى يوم يُبعثون

وهذه الآية الكريمة تحمل تهديدًا ووعيدًا شديدًا لكلِّ مَن كفر بالله وكذّب رسوله، وصدَّ عن سبيل الله بأنْ صرفَ النّاس عن الدّخول في الإسلام، وعن دخول المسجد الحرام للطواف بالبيت والإقامة بمكَّة للتَّعبُّد في المسجد الحرام؛ فالآية وإن تناولتِ المُشركين الَّذين صدّوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن دخول مكة عام الحديبية؛ فإنّها عامّةَ فى كلِّ مَنْ كفر وصدَّ إلى يوم القيامة[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ممّا قبلها:

كـــلٌّ مُـيـسّـرٌ لِاستحقاقِه

وقعتْ جُملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ﴾ في موقع الاستئناف

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لحد).
(2) الرّاغب، المُفردات: (لحد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (لحد).
(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن: 1/ 491.
(5) الجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 3/ 466.

البيانيِّ ممّا قبلها، كأنّه قيل: إذا كان حال المؤمنين - الَّتي استحقّوا بها النّعيم - الهداية إلى الطَّيِّب من القول وإلى صراط الحميد، فما هي حال الكافرين الَّتي استحقّوا بها النّار؟ فأجيب: ﴿كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾، ولذلك فُصِلَتْ[1].

نكتةُ استهلالِ الجملةِ بالتَّأكيدِ:

إن عاقَب الله تعالى أحدًا فبِعَدْلِه؛ وإن أثاب فبفضله

استُهلتِ الجملة بالتَّأكيد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لتقرير مضمونها اهتمامًا به وتأكيدًا للجزاء[2]، كما أكّد جزاء المؤمنين في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحج: 23]؛ فالتَّأكيد هنا يُقابل التَّأكيد هناك، وجريًا على نمط السّورة في الاستهلال بالمُؤكِّدات كما في الآيات: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الحج: 1]، و﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الحج: 6]... الآية[3]، وهذه ميزةٌ بلاغيّةٌ من مُكوِّناتِ سَمْتِ السّورةِ؛ وهي ناتجةٌ عن مراعاة أغراضٍ معنويَّةٍ تأسَّسَ عليها مجيءُ التَّأكيد.

دلالة التَّعبير بالموصوليَّة:

التَّعريف بالصِّلة تعريفٌ لِمُشتَهِر أو إشهارٌ لِما هو جديرٌ بالشُّهرة

عبَّرَ الذِّكْر الحكيم بالموصول دون غيره؛ فلم يَقُلْ: (إنّ الكافرين)؛ وذلك لتمييزهم بما في حَيِّز الصِّلة أكمل تمييز، ولإجراء وصف الكفر على ذواتهم تقبيحًا لها، وللدَّلالة على أنَّهم معلومون عند المُخاطَب بمضمون الصِّلة مُشتهرون به، فكأنّه قال: الَّذين وقع منهم هذا الفعل الخبيث من الكفر والصَّدّ، فيقع التَّصوُّر لذواتهم وهي ترتكِبُ القبيحَ وتُزاوله[4].

دلالةُ التعبير بالكفر فعلًا ماضيًا:

إنَّ كُفرَ الصّادِّ عن سبيلِ اللهِ ليس ككُفرِ غيرِه

التَّعبير عن فعل الكفر بصيغة الماضي في قوله: ﴿كَفَرُواْ﴾

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 235.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 236.
(3) مُستفادٌ من كلام فضيلة د. احمد صافي المستغانمي في برنامج (في رحاب سورة) تفسير سورة الحجِّ، تلفزيون الشّارقة.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 33.

للدّلالة على أنَّ الكفر قد صار كاللَّقب لهم[1]؛ فهم مُتحقِّقون به لا ينفكّون عن ملابسته؛ فهو حَيٌّ ذو حرَكيةٍ فيهم؛ ويُؤيِّد هذا إثباتُ الصَّدِّ عن سبيل اللّه والمسجد الحرام لهم في قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ فكان في نَظْم الكُفْر فعلًا ماضيًا تهيئةٌ لذلك، ولو قيل: (إن الكافرين) أو: (أهل الكفر)؛ لَما كان ذلك.

معنى الواو في جملة: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ ممّا قبلها:

الصَّدُّ عن سبيلِ اللـه من شأن رؤســـاءِ أهـل الكفر

الواو في جملة ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ إمّا عاطفة، وإمّا حاليّة؛ فعلى العطف كأنّه قيل: (كفروا وصدّوا)، وعلى الحال كأنّه قيل: وهم يصدّون؛ أيْ: كفروا؛ والحال أنَّهم يصدّون[2]، وعلى الأوَّلِ فالمعنيان سواء في التَّقرير والإثبات، وعلى الثّاني فالمعنى الثّاني مُمَيَّزٌ؛ لنظمه حالًا؛ ففي ذلك النَّظْم لفتٌ إليه، وأنَّهم كأنَّهم خُصّوا به؛ لكونه حالًا لهم يُذكَرون به، وذلك هو الأليق بهذا المعنى؛ لأنَّ أهل الكفر ليسوا سواءً في هذا الصَّدِّ المذكور؛ فبعضهم ليس بصادٍّ عن سبيل اللّه؛ ككثيرٍ من الأتباع في جملة الكافرين.

نكتة عطف المضارع على الماضي:

الـكـفـرُ يـواتـرُ الإدمـــانَ على شُـعَـبِـه ولـزوم طرائقه

قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ مضارعٌ معطوف على الماضي: ﴿كَفَرُواْ﴾، وساغ عطف المضارع على الماضي لأنّ المُراد بالمضارع - هنا - الاستمرار وليس مجرّد الحال أو الاستقبال، كما في قولهم: فلان يُحسن إلى الفقراء؛ فإنَّ المُراد به استمرار وجود الإحسان، فكذلك هنا المُراد استمرار وجود الصَّدِّ وتكراره، ففيه معنى الدّأب وتحقُّق المُلابَسة الَّتي في الماضي، أو المُراد من المُضارعة استحضار الصّورة الماضية وهي تحدث وتقع منهم تهويلًا لأمر الصَّدِّ؛ فهو بمعنى (صدّوا) كما في قوله ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 88] و[محمد ﷺ: 1][3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 236.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 132.
(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 528، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 132.

ويجوز أن تكون الواو في ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ واو الحال، فلا عطف، وقد سبق بيان بلاغة هذا الوجه، والتَّعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ﴾ يُفيد تفرُّغَهم للصَّدِّ، واستمرارهم عليه وتكراره منهم، وهو مُؤذِنٌ بصبرِهم على مُزاوَلَةِ الشَّرِّ وإدمانِهِم لارتكابِه[1]، وفي التَّعبير بالمضارع رحمةٌ منه سبحانه لهم؛ ليكون كالشّرط في الكفر، فيدلّ على أنّ مَن ترك الصَّدَّ زال عنه الكفر وإنْ طال ذلك منه[2].

دلالة حذف مفعول ﴿وَيَصُدُّونَ﴾:

حَذَفَ القرآنُ المفعول في قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فلم يُحدِّد يَصدونَ مَنْ؟ لغرضيْن؛ **الأول:** إرادة العموم وعدم التَّعيين؛ فهم يَصدّون كلَّ أحَدٍ يقدرون على صَدّه، فيصدّون المؤمن بردِّه عن دينِه، ويصدّون الكافرَ بتثبيتِه على ضلالِه، وفي العموم المذكور إيذانٌ بتنويع وسائلِهم في الصَّدِّ واتِّساعهم في استخدام أدَواتِه، **والثاني:** احتمالُ أنْ يكون ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ لازمًا غير مُتَعَدٍّ، على معنى (يُعرِضون)، فهم الَّذين يَصدّون ذواتهم، ولعلَّ هذه نُكتَة مجيء المضارع مضموم العين، لأنّه وإنْ كان الفعل لازمًا إلا أنّه في معنى المُتعدّي، لأنَّ الفاعل يَصُدّ نفسَه ويمنع ذاتَه، ولذا جاء الفعل مضموم العين بناءً على أنّ القياس في المُتعدّي ضمّ العين[3]، وهذا الحذفَ في نور دلالته المذكورة يُؤيِّد أن الأبلغَ كونُ الواو في قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ واو الحال.

الكافِرُ عدوٌّ نفْسِه قبل أنْ يكون عَدوا للمؤمنين

دلالة الإضافة ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

إضافة ﴿سَبِيلِ﴾ إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ أفادت أنّ صُدودَهم

سبيلُ الله هو كلّ ما يوصِّلُ إليه ممّا يُحبُّه ويرضاه

(1) رضا، المنار: 10/ 348.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 34.

(3) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 27، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/ 411، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/ 279، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/ 212، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/ 175.

أو صَدَّهم غيرَهم كان عن خصومتِهم مع الله ﷻ وكراهيتِهم لكلّ ما له نِسْبَةٌ إلى الله[1]، ودلّت أيضًا: على تعظيم (السَّبيل) بإضافته إلى اسم الألوهيّة الجامع، فإنّ إضافته إليه غايةٌ في التَّشريف، ودلَّت أيضًا: على أنّ هذا السَّبيل هو سبيل عبوديّةٍ وتألّهٍ من المخلوق للخالق، وتُشير الإضافة كذلك مع الإفراد إلى أنَّ هذا السَّبيل هو سبيل الحقِّ الوحيد، فكلُّ سبيلٍ لا يتّبَع هذا السَّبيل لا تصحُّ إضافته لله، ولا يتّصف بالحقيقة، ولا يستحقّ الاتّباعَ لِبطلانه، والإضافة إلى اسم الذّات الأعظم تُفيد - أيضًا - أنّ مُحاولةَ صَدِّهم عبَثٌ لا يُفيد، وسعيٌ على غير طائلٍ؛ فهم يُمانِعون شيئًا مُضافًا إلى القاهِر الجبّار الَّذي لا يُمانِعه أحدٌ إلّا وغَلَبَتْه يَدُ القُدرةِ وردَّتْهُ صاغِرًا، وفي الإضافة أيضًا تنبيهٌ على غياب جلال الله وجماله في قلوبهم ونفوسهم، وهذه الإضافةُ أيضًا قرينةٌ للاستعارة؛ فسبيل الله مُستعارٌ لِدينِه، وهي استعارةٌ أصليَّةٌ تصريحيّة[2]؛ حيث شبَّه الدّين بالسَّبيل بجامع أنَّ كلًّا منهما يوصل إلى غاية؛ فحُذِف المُشبَّه وترك المُشبَّه به.

سبيلُ اللهِ دينُه ومساجِدُه

موقع قوله: ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ ودلالة عطفه:

قوله: ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ معطوف على قوله: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ فهو معمولٌ للصَّدِّ، كأنّه قيل: (ويصدون عن سبيل الله ويصدّون عن المسجد الحرام)؛ فهم جامعون للحالَيْن في صدِّهم، ومجيء الثّاني بعد الأوَّل من باب مجيء الخاصِّ بعدَ العامِّ؛ تعظيمًا للخاصِّ واهتمامًا بشأنه، وتنبيهًا على أنّ المسجد الحرام هو كالشّعار والرُّكن الماثِل على سبيل الله؛ فمَن صَدَّ عنه فقد صدَّ عن السَّبيل، والصَّدُّ عن المسجد الحرام هو صدٌّ عمّا يتعلَّقُ به، وتعلُّق المسجد

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/ 175.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/ 175.

الحرام بالصَّدِّ عن طريق العطف يدلُّ على أنّه صدٌّ عرفه المسلمون يومئذٍ، وهو صدُّهم المسلمين عن دخول المسجد الحرام والطَّواف بالبيت، والمعروف من ذلك: أنّهم منعوا المسلمين بعد الهجرة من زيارة البيت[1].

نُكتةُ تخصيص المسجد الحرام بالذِّكْر:

المسجد الحرام من رموز الإسلام العُظمى

خُصّ المسجد الحرام بالذِّكر دون غيره من الأفراد الَّتي تندرج في سبيل الله؛ لينتقل منه إلى التَّنويه بالمسجد الحرام وذِكْر بنائه، وتشريع الحجِّ إليه من عهد إبراهيم عليه السلام، وفي ذِكْره تخلُّصٌ بديعٌ من العموم قبله إلى بيان حقِّ المسلمين في المسجد الحرام[2].

نكتة الوصف بالموصول:

اختيارات اللهِ للموجودات بالأفضليّةِ لا تُعلّل

جملة ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ﴾ صفةٌ للمسجد الحرام، وغرض الإتيان بها التَّوسُّل لوصف المعرفة بالجملة، وهذا من حيث اللَّفظ، ومن حيث المعنى فالغرض هو تعريف المسجد الحرام بصِلتِه المُعظِّمةِ له المعهودة عند المخاطَبين[3]، فإنَّ جعله للنّاس من الله يستلزم تعظيمه فضلًا عن الانكفاء عن إلحاق الصَّدِّ به، وفي التعريف بالصِّلة إشعارٌ بعلَّة المؤاخذة على الصَّدِّ، فإنَّ جعلَه أوّل بيت وُضع للنّاس يقتضي أنّه حَرَمٌ كلِّ النّاس، فلا يُحال عنه قاصِدٌ له، فلا ينفردُ به المشركون ثمّ يصدّوا غيرهم، وفيه تعليلٌ في المعنى للتَّسوية اللّاحقة في قوله: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾[4].

دلالةُ إسنادِ الجَعْل إلى نون العَظَمَة:

مواهبُ اللهِ في الأزمنةِ والأمْكِنةِ راجعٌ إلى سِرِّ حِكمته

في الإسناد إلى نونِ العَظَمَة[5] في قوله: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ تعظيمٌ لشأنِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 236.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 236.
(3) فاضل السَّامرَّائيّ، معاني النَّحو: 1/ 120، 122، 123.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 237.
(5) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 34.

التَّشريع - الَّذي اشتمل عليه الجَعْل المذكور - وخطرِ الإخلال به، وفيه تعظيم للفاعل وهو الله سبحانه، وأنّه لا حقّ لأحدٍ سواه في مِثل هذا الجَعْل بما استحقّه من كمال العَظَمَة والقُدرة والحُكْم.

معنى اللّام وأل في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾:

يستمد المؤمن أنواره من بيت الله الحرام ليشع نوره على الأنام

اللّام هنا يمكن أن تكون للتّعدية، ويمكن أن تكون للتّخصيص على معنى أنّ ذلك مُخصَّصٌ لهم مع احتمال اللّام لمعنى التّعليل، ويكون المعنى حينئذٍ أنّه مجعولٌ لأجلهم، وقد أفاد تعريف كلمة ﴿لِلنَّاسِ﴾ هنا الجنسيَّةَ الاستغراقيّةَ على اعتبار أنّه أراد عموم النّاس، ويمكن أن تكون للعهد؛ والمُراد بالنّاس عندئذٍ: المؤمنون الَّذين يقصدونه.

غرض تنكير ﴿سَوَآءً﴾ وحذفِ جهةِ التَّسوية:

ولا يظلم ربّك أحدًا

الغرض من التَّنكير في قوله: ﴿سَوَآءً﴾ العموم وإفادة الكمال؛ أيْ: يستوي فيه العاكف والباد استواءً تامًّا لا نقص فيه، ولا مزايدةَ فيه لأحدهما على الآخر، وهذا الاستواء التّامُّ إنَّما يكون في العبادة المقصودة منه ومن ملحقاته؛ وهي: الطَّواف، والسَّعي، والوقوف بعرفة[1]، وتلك العبادة هي جهة التَّسوية المحذوفة لكمال ظهورها في السّياق والعلم بها لدى المخاطبين.

توجيه القراءات في ﴿سَوَآءً﴾:

الوجوه الإعرابية تُثري المعاني الدلالية

قرأ حَفْصٌ بِنَصْبِ ﴿سَوَآءً﴾ منونةً، وَقَرَأَ الباقونَ بِالرَّفْعِ والتنوين ﴿سَوَآءٌ﴾[2]، وحجّة مَن نصب أنه جعله مصدرًا عمل فيه ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾، كأنه قال: (سوّينا فيه بين الناس سواءً)، وارتفع ﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ بـ: ﴿سَوَآءً﴾، كأنّه قال: (مستويًا فيه العاكف)، فهو مصدر في معنى اسم الفاعل، كما قالوا: (رَجل عَدْل) أي: عادل، وعلى هذا أجازوا:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 237.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 326.

(مررت برجل سواءً درهمُه)، أي: (مستويًا درهمُه)، ويجوز أن يكون ﴿سَوَآءً﴾ انتصب على الحال، وإذا نصبتَه على الحال جعلتَه حالًا من المضمر، في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ المرتفع بالظرف، ويكون الظرف عاملًا في الحال؛ لأنّه هو العامل في المضمر الَّذي هو صاحب الحال، أو يكون حالًا من الهاء في ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾، ويكون العامل في الحال (جعلنا) كما عملت في الهاء الَّتي هي صاحب الحال، وحجة من رفع أنه جعله خبرا لـ: ﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ مقدَّمًا عليه، والتقدير: (العاكف والبادِي سواء فيه)، أي ليس أحدهما أحق به من الآخر[1].

ففي قراءة النصب بلاغة إقامة المصدر مقام اسم الفاعل دلالة وعملًا، وفي قراءة الجمهور بالرفع بلاغة التقديم والتأخير، وعلى قراءة الرفع يحسُن الوقف على ﴿لِلنَّاسِ﴾، ثم الابتداء بـ: ﴿سَوَآءٌ﴾، وتكون الجملة بمثابة الإجابة عن سؤال مقدَّر محذوف: (كيف يا رب جعلت البيتَ للناس؟) فأتت الإجابة رافعة الإبهام: (المقيم وغير المقيم فيه سواء)، أي: ليس أحدهما بأحقّ به من صاحبه، واستواء العاكف والبادي فيه دلالة على أن أرض الحرم لا تُملَّك، ولو مُلِّكت لم يستويا فيه، وصار العاكف فيها أولى بها من البادي بحقّ ملكه، ولكن سبيلها سبيل المساجد الَّتي مَن سبق إليها كان أولى بالمكان لسبقه إليها، فسبيله سبيل المباح الَّذي مَن سبق إليه كان أولى به[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ و﴿وَٱلْبَادِۚ﴾ وتعدد الصور البيانيَّة فيه:

عالَمية الإسلام من أهمِّ مميزاته

أفاد التَّعريف في الاسمَيْن هنا الاستغراقَ؛ ليعمَّ كلَّ مَنْ كان شأنه كذلك، وفي هذا تصوير لعالَميَّة الإسلام وشمولية هذا الدّين الحنيف، وقولُه: ﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾: هو المقيم الملازِم للمسجد الحرام، وفيه كنايةٌ عن السّاكن بمكّة؛ لأنّ السّاكن بمكّة يعكف كثيرًا في

(1) مكّي، الكشف: 2/ 118.
(2) الفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/ 271.

المسجد الحرام بقرينة مقابلته بالبادي، وهو ساكنُ البادية القادم على المسجد الحرام من خارج الحرَم[1].

وإطلاق العكوف في المسجد في قوله: ﴿ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ﴾ على الإقامة بالبلد (مكّة) مُجازٌ مُرسلٌ بعلاقة اللُّزوم العرفيّ؛ فأُطلق اللّازم - وهو الإقامة بالمسجد - وأراد الملزوم؛ وهو الإقامة بالبلد[2]، وفي انضواء وصف العكوف في قوله: ﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾ مع وصف ﴿وَٱلۡبَادِۚ﴾ في التَّسوية المذكورة في قوله: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ تعريضٌ بالعاكفين الصّادّين بأنَّهم لا يستحقّون سُكنى مكَّة مَزيةً على غيرهم، وبأنَّهم حين يمنعون الخارجين عن مكَّة من الدُّخول للكعبة قد ظلموهم باستئثارهم بمكَّة[3].

نكتةُ التَّقديم والطِّباق في (العاكف) و(الباد):

قَدَّم السياق القرآنيُّ ﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾ على ﴿وَٱلۡبَادِۚ﴾؛ لأنّه الأقرب والألصق بغرض إثبات جعل المسجد الحرام للنّاس كلِّ النّاس، وإسراعًا في تسجيل عدم أفضليَّته في الاستحقاق عن غيره، وبينَ: ﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾ و﴿وَٱلۡبَادِۚ﴾ طباقٌ في المعنى؛ فالعاكف هو المُقيم السّاكن، والباد هو المسافر الرّاحِل، وفيه دعوة للمُتلقّي إلى فقه كلِّ واحدٍ منهما في نور الآخر، فيتمكَّن المعنى المُتعلِّق بهما في النَّفس، وهذا إحسان إلى المعنى وإلى المُتلقّيه جميعًا، وفيه أيضًا: تقويةٌ لمعنى استوائهما في حُكْم الجَعْل المذكور.

دلالةُ حذف خبر الموصول في: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

في آية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ حُذِف خبر ﴿إِنَّ﴾؛ وتقديره نحوُ (نذيقهم من عذاب

سُبُـل الـكـفـر تتنوّع ولا تتضادّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 237.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 237.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 237.

أليم)[1]، وعِلّة الحذف هي الإيجاز؛ لإدماج مصير الصّادّين عن سبيل الله والمسجد الحرام في مصير المُلحدين فيه بظلم، للإشارة إلى اشتمال كلٍّ منهما على الآخر، فالصَّدُّ عن المسجد الحرام إلحادٌ فيه بظلم، والمُريد فيه إلحادًا بظُلْم مُنخرِطٌ في فئةِ الصّادّين، والبديع في هذا الحذف أنّه جعل التَّهويل والمبالغة في الاستهجان يتناول الفئتيْن على السَّواء: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ﴾ و﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ بدلالة مصير الثّاني على مصير الأوّل، وخصوصُ الثّاني في عموم الأوّل.

موقعُ جملةِ ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾:

جملة ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ تذييلٌ لمجموع جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ معطوفة عليها[2]، وهي من باب عطف الخاصِّ على العامِّ؛ كعطف الصَّدِّ عن المسجد الحرام على الصَّدِّ عن سبيل الله.

الكفر مُحدِثُ كلِّ انحرافٍ

دلالة (مَنْ) الشَّرطيَّة وفائدة نَظْم المعنى في جملة شرطيَّة:

(مَنْ) تقع شرطًا للعاقل، ويكون بها الجزاء للعقلاء والعالمين[3]، وهي تُفيد العموم في الشَّرط؛ أي: كلّ مَنْ يفعل ذلك من المُكلَّفين بالخطاب استحقَّ العقوبة والجزاء، وغرض التَّعبير بأسلوب الشَّرط تحقيقُ الجزاء في قوله: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ بتعليقه على الشَّرط وتسبيبه عنه وتفريعه عليه، وفي هذا الأسلوب نوعُ حسم وجزم وقطع وشدَّة؛ ومِن شأن ذلك مناسبتُه لمعنى جملة الشَّرطِ والجواب.

تحقيق الأجزيةِ باشتراطها

دلالة تعليق الوعيد على مُجرّد الإرادة وحذفِ مفعولها:

لا يخفى ما في تعليق الوعيد في الجواب على مُجرَّد الإرادة في الشَّرط من تهويلِ إرادة الإلحاد فيه بظُلم وتعظيم خطر النّية والقصد، ولذا لم يَقُل: (ومن يُلحِد فيه بظلم)، ويعظُم هذا التَّهويل

أيُّ جُـزْمٍ يكون ذلك الإلحادُ فيه بظلم؟!

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 239.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 239.
(3) سيبويه، الكتاب: 2/ 309، وفاضل السَّامرائيّ، معاني النَّحو: 4/ 88.

في النَّفس ويَقوَى ويشتدُّ مع إفادة العموم بحذف مفعول الإرادة؛ فلم يُحدَّد في السّياق الكريم: (لم يُرد فيه مَنْ؟! أو أي شيء؟!) لقصد العموم؛ ليتناول كلَّ متناوِلٍ للسّوء فيه؛ أي: ومَنْ يُرد فيه شيئًا ما، أو مُرادًا ما، أو مَنْ يُرِد فيه النّاس[1].

دلالة تقديم: ﴿لِلنَّاسِ سَوَآءً﴾ و﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾:

تَقدَّم شِبه الجملة في قوله: ﴿لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ وفي قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ للاعتناء والحصر؛ أيْ: جعلناه للنّاس خاصَّةً دون غيرهم، فأمّا قولُه: (جعلناه للنّاس سواء العاكف فيه والباد)؛ فالظّاهر أنَّه يُفيد الحَصْر الحقيقيَّ، وإلّا فهو للحَصْر الإضافيِّ على جهة تغليب الإنس على الجِنِّ، وأنّه مجعولٌ للمُكلَّفين من الجنّ كذلك، وأمّا قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾؛ أيْ: الجزاء المذكور من الوعيد منوطٌ بمَنْ يُرد الإلحادَ فيه لا في غيره، وهو حصرٌ إضافيٌّ على جهة المبالغة والتَّعظيم؛ لأنّ تعاطي الإلحاد بظُلْمٍ يستوجب العذابَ في كلِّ الأماكن.

تعاطي الإلحاد بظُلمٍ في الحَرَم أشدّ في الوعيد من سائر الأماكن

معنى الباء في: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾:

جاءت الباء في قوله: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ للمُلابَسَة؛ أيْ: مُلابسًا للإلحاد، أو هي صِلةٌ زيدتْ للتَّأكيد، أو هي سببيّة؛ أيْ: إرادته بسبب الإلحاد، أو الباء على بابها في التَّعدية بتضمين ﴿يُرِدْ﴾ معنى (يتلبّس)[2]، وتحت هذه الباء معنى لطيف جِدًّا؛ وهو إنكار إرادة الإلحاد في المسجد الحرام؛ فمِثْلُ ذلك الإلحاد فيه من شأنه ألّا تتعلَّقَ به إرادةٌ ما إلّا على خلاف الأصلِ؛ فذلك الإلحاد شيءٌ مُنكَرٌ قبيحٌ مرفوضٌ.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 116، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 134.
(2) السَّمين، الدُّرُّ المَصُون: 8/ 259، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 134.

فائدة التَّقييد بقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾:

المنْع في الله هو سعيٌ في سبيل الله لا صدٌّ عنه

وردت الباء في قوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ﴾ للملابسة[1] أو السَّببيَّة[2]، وتقييد الإلحاد بالظُّلم للاحتراس بالقيد عن الصَّدِّ بحقٍّ، وأنّ الصَّدَّ المنوط بالمؤاخذة هو ما كان في غير موضعه، فيخرج به صدّ الكفار عنه للنّهي عن قربانهم له، وكذا صدُّ الحائض والجُنُب، وصدُّ الخائنِ؛ فكلٌّ ذلك مأذونٌ فيه فليس ظلمًا[3].

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بالإذاقة:

إذاقة العذاب أعلى مستوًى في التعذيب

قوله: ﴿نُّذِقْهُ﴾ مُشعِرٌ بأشدّ العذاب؛ لأنّ الإذاقة تدلُّ على سريان الألَم في الحاسّة واستغراقه لها، فشبَّه إصابة العذاب لهم بالإذاقة بجامع التّمكّن على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة، وهذا من أبشع ما يكون في مستوى الإحساس بالوجَع والتّضرُّر به.

معنى ﴿مِنْ﴾:

العذاب كلّه شرّ وإن تفاوت مقداره

﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إمّا تبعيضيَّة؛ أيْ: نُذقه عذابًا من عذاب أليم على اعتبار أنَّ المشروط نوعٌ من الإلحاد لا الإلحاد الكامل[4]، ومفعولُ الذَّوقِ على هذا محذوفٌ، وبولِغ في تقرير هذا العذاب بحذفه إشعارًا بأنَّه أشدُّ أنواع العذاب؛ فهو يُمثِّل الأصلَ، والأصلُ ينوبُ عنه؛ مبالغةً في تقرير المذكور تناسُبًا مع عِظَم جُرْم الإلحاد المذكور، ويصحُّ أن تكون صِلةً للتَّوكيد على رأي مَنْ لا يشترطون لزيادة (مِنْ) وقوعها بعد نفيٍ أو نهيٍ[5].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(نُذِقْه) و(نُمِسَّه):

الذَّوق يدلّ على الإحساس العميق والتّشبُّع بالشَّيء

أصل (مسّ) يدلّ على جَسّ الشّيء باليد[6]، يُقال فيما يكون

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 239.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 34.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 34.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 34.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 239.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسّ).

معه إدراكُ بحاسَّة اللّمس[1]، والمَسُّ يُقال في كلِّ ما ينال الإنسان من شَرٍّ[2]، والذَّوْق أصل (ذوق) يدلُّ على اختبار الشَّيء من جهة الطَّعم، ثم يُستعمل مجازًا في عموم التَّجربة والاختبار وإن لم يكن بحاسَّة الفَم... وقد جمع اللّه بينهما في القرآن فقال: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: 48]، فجعل المسّ يُذاق مبالغةً في أنّ العذاب يستوفي حواسّهم وجوارحهم[3].

والحاصل أنَّ الفرق بين المَسّ والذّوق واضحٌ على المعنى الخاصّ لكلٍّ منهما؛ فالمسُّ: يتعلَّق بحاسَّة اللَّمس، ويكون من طريق اليَد أو البَشَرة (ظاهر الجلد)، وتعلّقه بذلك يدلّ على أنّ الأصل فيه أن يتعلّق بالإحساس الظّاهر الخفيف، وقد يتعلّق بالإحساس العميق المُتشبِّع، ويُحدّد ذلك السّياق الَّذي ورد فيه، وأمّا الذّوق فيتعلّق بحاسّة اللِّسان والتَّعاطي بالفم، ويُستعمل هو والمَسُّ في عموم تجربة الشَّيء واختباره حِسًّا، إلّا أنّه يُستلَهَمُ من هذا التَّعلُّق اللُّغويُّ أنَّ الذَّوق يدلُّ على الإحساس العميق والتَّشبُّع بالشَّيء؛ فهو يدلُّ على كمال الإحساس وتمامه، ولا يلزم ذلك في المَسّ إلّا بقرينة، وسياقات القرآن المجيد تُنبئ عن هذا الفَرْق.

(1) الرَّاغب، المُفردات: (مسس).
(2) السَّمين، عُمدة الحُفَّاظ: (مسس).
(3) السَّمين، عُمدة الحُفَّاظ: (مسس).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»